

## أفكار حول كتاب الدكتور كمال الصليبي «بيت بمنازل كثيرة»

الأب عبدالله داغر اليسوعي

توقى كمال صليبي في اختبار عنوان كتابه «بيت بمنازل كثيرة» ويذكر أن هذه العبارة مقتبسة (ص: ٩) من إنجيل يوحنا (١٤: ٢) «في بيت أبي منازل كثيرة». صفة يوحنا المميّزة هي المحبة، فهو رسول المحبة، هو يوحنا الحبيب.

البيت اللباني واحد والمنازل فيه كثيرة: تعني هذه العبارة التعددية الخاصة بهذا البيت الواحد. والقضية هي التوفيق بين هذه الوحدة وهذه التعددية، وهو أمر ليس بالسهل، إلا إذا تعهدته المحبة بالتكامل والتضامن، «لأن كل بيت ينتمى على نفسه يسقط» (لوقا ١١: ١٧). وليس الأمر بالهين، وصعوبة هذه القضية تعنيها كماله العنوان «بين التصور والواقع». والخطر يأتي من الأنانية التي تغذي «المشائرية» والمؤلف يركّز بحثه عليها كثيراً في بحثه، لأنها هي تزعزع أركان هذا البيت، حيث الكثيرون «يرغبون لتقسيم ما لا يرغبونه لسواهم».

ولا شك أن الدكتور صليبي وضع هذا الكتاب بدافع محبته لوطنه ولوطانيه، أملاً أن يصبح «الواقع مطابقاً للتصور»، باحثاً بالعمق في مسيرة كل الفرقاء، ما هي دوافعها وما هي حلاقاتها وما هي في النهاية شروط أملنا في إصلاح ما اعوجّ بسبب ضلال المشائرية ونفاق دكاكين السياسة القصيرة البصر (ص: ٢٧١). فمن هذه الناحية، يمكن القول إن هذا الكتاب دعوة إلى فحص ضمير نثر حول عدد من الأسئلة مثل هذه: كيف نشأ هذا الكيان، وما كان الجامع بين هذه المنازل، وهل حاول أصحابها جعلها بيتاً واحداً موحدًا، أي وطنًا مختزلاً، وما هي في الحقيقة ميزاته وإلى أين وصلنا الآن؟

تضمّن فصول هذا الكتاب تقويمًا نقديًا للنظريات المسيحية والإسلامية

حول تاريخ لبنان، وهي النظريات المعارضة والمتعاكسة التي تكمن وراء النزاع السياسي... والغرض من ذلك هو اكتشاف نواحي الخلل في هذه النظريات وتعديد الأسباب التي جعلت من المستحيل على أيّ منها أن يلقي قبولاً عاماً بين اللبنانيين حتى اليوم (ص: ١٦).

غير أنّ هذه النظرة المشائمة يسبقها تلطيف قد يكون تناقضاً لولا التطور الذين وصلنا إليه، حيث يقول: «هناك إجماع ملحوظ اليوم بين الجميع (على المستوى الشعبي)، باستثناء أكثر الملتزمين تطرفاً، على أنّ الجميع هم في الواقع لبنانيون، وأتهم يشتركون بالفعل في هوية وطنية واحدة تسمو في أهميتها على الانتهاءات والولاءات النثرية الثانوية» (ص: ١٥). ويقول: (ص: ١٤) «قد يقال بحق إنّ لبنان اليوم لم يعد بلدًا إلاً بالاسم. ومن الغريب مع ذلك أنّ مسلمي لبنان ومسيحيه لم يظهروا في السابق ما يظهرونه اليوم من وعي عميق لهويتهم الوطنية المشتركة وإن كان ذلك بقدر من الاختلاف في تعريف مقومات هذه الهوية. والواقع أنّ الأمر لم يكن كذلك في العام ١٩٢٠». ويتابع أيضاً قوله (ص: ١٧) «إنّ الطوائف اللبنانية - المسيحية والإسلامية - لا تختلف عن بعضها البعض إلاً بالهوية الدينية، بينما يشترك الجميع في عروية اللغة والتراث العام والتقاليد الاجتماعية الأساسية، أي في ما يمكن تسميته بالنمط العربي للعيش». ونا حبذا لمر ذكر هنا التأثير العميق الذي أخذناه في العديد من مدارسنا المسيحية خاقنة. من كتاب الأب لويس شيخو و«عجائب الأدب من حداق العرب».

ونظرة المؤلف ابن العمروية تتوضّع في أماكن عديدة من الكتاب، حتى إنه يصعب في النهاية عدم قبولنا لدى الجميع فيمكننا أن نساءل هل عنوان هذا الكتاب لا ينطبق عليها أيضاً. لا على لبنان وحده. وهذا ما يبرر قول من قال «إنّ المسيحي اللبناني يتميّز عن سائر مسيحي العالم، وكذلك المسلم اللبناني يتميّز عن سائر مسلمي العالم».

ونذكر هنا كلاماً للأستاذ غسان تويني في مجلّة «الناقد» عدد ٣١ كانون الثاني ١٩٩١، حيث يقول ما معناه «إنّ لبنان وحده باستطاعته أن يُنقذ العمروية، أعني أنّ يحررها من المفاهيم الضيقة ويوجهها نحو المستقبل، وذلك بمفعول انفتاحه».

إنّ الفصل الأخير من الكتاب، وهو خيرة ما بصل إليه المؤلف، يضع أمام أعيننا استنتاجات قيّمة تفاضلية عن وضع لبنان كما هو الآن وكما يجب أن يكون، فيقول: (ص: ٢٧٢) «لقد أصبحت الخصوصية اللبنانية ضمن الإطار العربيّ العامّ مقبولة عمومًا بين العرب... لأنّها أصبحت واقفًا، ولم يعد أحد يشجبها بكونها ادعاءً مفرطًا...» (ص: ٢٧٣) «يمكن الخروج من حفيائق الحاضر... بثلاث استنتاجات تتصل بمسألة إعادة النظر في التاريخ اللبناني: الاستنتاج الأوّل هو أنّ تجربة الحرب الأهلية في لبنان قد أثبتت... إنّ أيّ طرف من اللبنانيين لا يمكنه أن يفرض رأيه بسهولة على الطرف الآخر. وهذا يعني أنّه لا يمكن حلّ مشاكل لبنان - بما فيها تلك المتعلّقة بالتاريخ اللبناني - إلاّ من خلال تنازلات عقلانية متبادلة... والاستنتاج الثاني هو وجود مؤشّرات واضحة على أنّ البلد قد بلغ مرحلة الإجماع السياسيّ الأساسيّ لدى الأكرية غير المتقاتلة من مختلف الطوائف اللبنانية، وربما أيضًا من عناصر كثيرة من الفئات المتقاتلة، ممّا يجعل استمرار وجود لبنان كدولة مستقلة ذات سيادة داخل حدوده الراهنة أمرًا ممكنًا الآن وبغضّ النظر عمّا إذا كان هناك شيء اسمه لبنان قبل العام ١٩٢٠ أم لا... والاستنتاج الثالث هو أنّ العالم العربيّ... أصبح يقبل بالجمهورية اللبنانية كما هي موجودة فعلاً ويفهم البنية الحساسة للمجتمع اللبنانيّ ويقدرها اليوم - وبالتأكيد - كما لم يقدرها السابق. وهذا يعني أنّ التسليم بعروية لبنان - إلى الحدّ الذي قد يكون فيه هذا المفهوم صحيحًا - لم يعد يشكّل خطرًا على استمرار سيادة البلد ووحدته ولا على منزلة أمة مجموعة معيّنة من اللبنانيين... قد يُقال اليوم إنّ العرب صارت لهم رغبة خاصة في المحافظة على استمرار سيادة لبنان ووحدته أراضيهم لأنهم فهموا أخيرًا أنّ عملية تفكيك لبنان قد تسرّب بسهولة إلى بقية العالم العربيّ...»

رأينا أن ننقل بتوسّع هذه المقاطع لأنّها خاتمة البحث، تدعو إلى التفاضل بشروط واضحة، انطلاقًا ممّا وصلنا إليه في لبنان اليوم، وهي تستحقّ انتباه جميع اللبنانيين المخلصين الراغبين في تحرير وطنهم من كلّ القيود. فإنّ الدكتور كمال الصليبيّ من الأقطاب في تاريخ لبنان، فيحقّ لنا أن نتظر منه الكثير لنطلع على حقيقة تاريخنا مع الدوافع البعيدة والقريبة على أنواعها التي وجمت وتوجه فيه «النازل الكثيرة».

إننا نقلد بدون تحفظ مقاطع كثيرة من الكتاب تمتاز بدقّة التحليل لقضايا وعناصر عديدة ولكن عندنا بعض التساؤلات على البعض الآخر، ولا نذكر هنا إلا البعض منها.

إننا قد أعجبنا بمعالجة موضوع العروبة، وقد توسّع فيه المؤلف بغزارة وتوفيق (خصوصاً ص ١٧ و ٧١ - ٧٤ و ٢٧٤ - ٢٨٣)، ثم موضوع العروبة والإسلام، أين يلتقيان وأين يفترقان، وهو موضوع على جانب كبير من الأهمية، يتبعه موضوع العلمنة (ص ٢٤١ و ٢٤٥) بإيجابياته وسلبياته. وقد هاجم المشائرية الطاغية على فئات من المجتمع اللبنانيّ توجّه وتساند زعامات زائفة متكاذبة تحافظ على التخلف وتسدّ الطريق إلى التقدّم الصحيح وازدهار الخير العامّ.

وأن نسي فلن نسي صحّة تأكيد المؤلف لأهميّة الوفاق بين الدروز والموارنة منذ فخر الدين وتعاونهم في بناء «البيت اللبناني» (مثلاً ص: ١٥٩ و ٢٠٨ و ٢٨١).

وكان المؤلف على حقّ في ما كتب، خصوصاً في الفصل الثامن، عن دور بيروت في التطوّر اللبنانيّ، فأصبحت باب الاتّصالات على أنواعها: تجاريّة، اجتماعيّة، ثقافيّة، دينيّة، وذلك من ناحية بين العائلات المسيحيّة والعائلات الإسلاميّة، ومن ناحية ثانية بين الشرق والغرب، ومن ناحية ثالثة بين مجتمع «المدينة» ومجتمع «الجليل». وفي كلّ ذلك فوائد عدّة يذكرها المؤلف. ولكن هناك أيضاً سلبيّات كان من المستحسن أن يذكرها أيضاً، وهي أنّ ازدهار المدينة كان في النهاية على حساب الجبل والحياة الريفيّة. فهجرة «الضبعة» أضرت كثيراً مصير الحياة اللبنانيّة، وحضارة تهدم الريف هي معرضة لخطر الانهيار، وعلى المسؤولين ديناً ودنياً أن يسهروا على التوازن الضروريّ بين القاعدتين.

ولا بدّ أن نشي على ما يقوله المؤلف عن دور ميشال شحّا في تحديد «الكيان اللبناني» ووضع دستور الجمهوريّة اللبنانيّة (الفصل العاشر). وكنا نتمنى عليه بالمناسبة لو ذكر بالخير مؤسسة «الندوة اللبنانيّة» التي أنشأها شحّا بالتعاون مع هنري فرعون وميشال أسمر المارونيّ - صاحب الفكرة - وعدد من

المفكرين اللبنانيين، مسيحيين ومسلمين، فجاهدوا في سبيل ترسيخ أسس لبنان «البيت الواحد بمنازل كثيرة». وهو متصل بالعمق بالدول العربية ومفتوح على الغرب بمجالات عدّة، ولا شك أن «الندوة اللبنانية» كانت ثمنت على الدكتور كمال الصليبي أن يلقي من على منبرها الفصل الأخير من الكتاب، لو كانت الأحداث سمحت لها بمتابعة نشاطها القيم.

يتوسّع المؤلف، وهو على حقّ، في تحليل التقدّم الثقافي والاقتصادي والاجتماعي الذي امتاز به لبنان في عهده العثمانيّ وحّد علاقاته بالغرب وبالأفكار الديمقراطية والسياسية المنتشرة فيه. ألم يكن من الطبيعيّ أن يتبع هذا التقدّم «الإنسانيّ» طموح إلى التقدّم السياسيّ وبالنتيجة إلى الاستقلال الوطنيّ؟ وهل يجوز القول والحالة هذه أنّ لبنان ١٩٢٠ هو بكلّ بساطة خليفة فرنسا فقط لتأمين مصالحها، وهذا لا شكّ فيه، وإرضاء لحاظر الموارنة؟

وفي هذا الخطّ نساءل أيضًا لماذا لم يذكر المؤلف الدور الخاصّ الذي امتازت به سياسة الرئيس فؤاد شهاب، لا سيّما أنّ مواضع عديدة من الكتاب كانت تفسح المجال لذكره، تذكر الأخيرة منها (ص: ٢٨٦). يقول «كان التمدّن في عهد الاستقلال محدودًا في انتشاره وكيفية ظهوره، أي من حيث المساواة أو الرغبة في المساواة والحقّ في المساواة في الانتساب إلى مدينة واحدة...».

إنّا نعلم علمًا يقينًا أنّ فؤاد شهاب - ولا أتكلّم هنا عن الشهابيين عامّة - بنى رؤيته السياسية اللبنانية على أسس العدالة الاجتماعية والإنصاف السياسيّ لجميع الفئات من ناحية، ومن ناحية أخرى على إعطاء الأولوية في اهتمام الدولة لخدمة المواطنين إلى المناطق المحرومة، مسيحية كانت أم عمّديّة، وإن لم تنجح محاولة مشروع «الإرفيد»، فلا يقع الذنب عليه، بل على الذين تساءل فيهم المؤلف (ص ٢٣٦ وليست المرّة الأولى والوحيدة) «إنّ أقطاب المعارضة من الزعماء التقليديين في المناطق الريفية والعشائرية لم تكن لهم آية مصلحة في تطوّر مناطقهم الانتخابية خشية أن يؤدّي ذلك إلى حرمانهم من الدعامة الأساسية لسلطتهم وهي المتمثّلة في أتباعهم من ذوي الولاء العشائريّ الأعمى أو شبه العشائريّ. وكان يمكن للتطوّر أن يعطي الأعمى قدرة على النظر، وهو ما لم

يكن مرغوباً سياسياً عند هؤلاء الأقطاب».

ولا بأس أن نذكر هنا كلمة شهاب عندما كان قائد الجيش، وكلفته الحكومة أن يعيد الهدوء إلى منطقة عشائرية مضطربة، فقال: علينا أولاً أن نفتح هناك مدارس ومستشفيات ونؤمن الطرقات والماء والكهرباء فيعود إليها الهدوء بسهولة. ومن منجزات عهده ذات المغزى في مسيرة توحيد الوطن فتح جادة فؤاد شهاب وجادة الاستقلال في بيروت لتسهيل الاتصال بين شطري العاصمة شرقاً وغرباً. وعندنا بعض التحفظ على رفض المؤلف العبارة الوجيهة عن «لبنان الملجأ»، وسبب رفضه قوله إن «مناعة جبال الوعرة» غير صحيحة، فالتاريخ يذكر أن جيوش المماليك والعثمانيين اقتحمت أكثر من مرة هذه الجبال، (ص: ١٨٨) وعملت فيها الحراب والدمار، وهذا صحيح إجمالاً، فلماذا يقول المؤلف (ص: ١٥٩) «الفرنجية لم يتمكنوا من الوصول من بيروت إلى بلاد الغرب الجبلية الوعرة حيث قاد الأمير يحتر مقاومة عمليّة عنيفة». ألا يجوز القول إذاً إن المناعة على درجات والأمن على درجات ومناعة جبال لبنان على درجات فلا بأس أن نقول: «لبنان الملجأ» وليست هذه النظرة من اختصاص الأب لامنس، علمًا بأن المؤلف قد يكون على حقّ حين يتساءل ما هو مدى تأثير الاعتبارات السياسية على كتاب الأب لامنس عن «سورية». وأتينا نقرأ عند عدد من الرخالة أن الكثير من الأقليات «لجأت» إلى هذه الجبال الوعرة. وكنتنا نتمنى على المؤلف أن يشرح وجود الأقليات الكثيف وغيابها عن السهول والسواحل، في حين أن الأمر بالعكس مع السنة. وكأني به انتبه إلى هذا الأمر فيقول في مكان آخر (ص: ٢٣٧): «إن لبنان أصبح مع الوقت، بالرغم من الأخطاء السياسية المدينة، ديمقراطية ضمنت فيها الحرية الفردية واحترمت في كلّ مجالات الحياة... حتى صار يُنظر إليه كواحة من الحرية في محيطه العربي». وهنأيتني على البال طرح سؤال على المؤلف ليشرح لنا لماذا كان «بلجأ» إلى لبنان، خصوصاً بين سنة ١٩٤٥ وسنة ١٩٧٥، رجال السياسة ورجال الأعمال السوريون، عندما كان يخونهم الحظّ ويصبحون ضحية الانقلابات المتتابعة المشهورة إذ ذاك في بلادهم بعد ذهاب الفرنسيين؟

وهذا نوع من «المناعة» الأدبية بالتركيز على احترام الغير حتى في ممارسة حرية المعتقد بكلّ أبعادها، ومثل ذلك إمكانية تغيير المعتقد الديني، كما جرى

مع الشهابيين واللمعيين وكما يمكن عقد زواج فتاة مسلمة من شاب غير مسلم، وهذا من ميزات لبنان بالنسبة إلى سائر الأقطار العثمانية والمشرقية عامة. وإن ما يحكى عن الدين والممارسات الدينية عند الأمير فخر الدين والأمير بشير الكبير يلقي نورًا على هذا الواقع (ص: ١٤٦، ٢٠٤، ٢٠٨).

وبالنسبة لتساءل أيضًا هل أعطى المؤلف هذين الأميرين حقهما في تحليل سياستها وتأثيرها على مسيرة لبنان في التطور نحو استقلالية خاصة حتى المتصرفية ثم الجمهورية؟ ألم يترك بصمة مميزة وثابتة في الإدارة والثقافة والاقتصاد والزراعة والتجارة والانفتاح. إن صفاتها رغم أغلاطها تعدت صفات الموظف العادي، العثماني خاصة، ولم يقف عند حدود «الملتزم» لجمع الضرائب في خدمة الباب العالي. وهذا ما كلّف اللبنانيين غالبًا من قبل العثمانيين في منتصف القرن التاسع عشر وفي أثناء الحرب العالمية الأولى. ولم يتوقّف المؤلف في محاولته تبرئة العثمانيين من تلك المذابح بقوله إن الباب العالي أسرع في محاكمة والمسؤولين، ومعاقبتهم الشديدة كأنه لم يتب إلى أن هذا الإسراع لم يكن الدافع إليه الغيرة على العدالة، بمقدار ما كان الهّم أن تسبق حكومة اسطنبول الحملة الأوربية القادمة ووصول الجيش الفرنسي إلى بيروت ودير القمر فيفضح أمرها. ولا يمكن أن ننسى هنا مسؤولية تلك الحكومة في مذابح الأرمن الفظيعة المتابعة.

عندنا ملاحظة أخيرة عن الإمارة والوراثة: إن كلام المؤلف لا يشرح بوضوح لماذا كان «الملتزم» في لبنان أميرًا من عائلة معينة لبنانية حرزًا أو مستيًا أو مارونيًا، بينما كان في سائر الولايات موظفًا غريبًا عن الولاية قد لا يتبعه أحد من أقاربه؟

## التدخل الأجنبي

يذكر المؤلف مرارًا عديدة التدخل الأجنبي في لبنان (مثلًا ص: ٨١) من النواحي الاقتصادية والثقافية والسياسية، من أيام فخر الدين خاصة. والجميع يطلبون مصالحهم، لا على حساب الدولة العثمانية المريضة فقط، بل على حساب الشعب اللبناني وطوائفه أيضًا. وكنا نتمنى لو توسع في هذه الناحية من

تاريخنا. فهل يمكن أن ننسى دور ومسؤولية الدول الأوربية ثم والأميركية في بثّ الخلافات وحتىّ القتال عندنا، وكانت القمة في أحداث ١٨٦٠ وعادت فانبعثت في أيامنا هذه التعمية. فمنذ حملة بونايرت إلى الشرق ليقطع طريق الهند على إنكلترا، أصبح من الواضح أن إنكلترا تخشى نفوذ فرنسا «صديقة وعامية» الكاثوليك، والموارنة خاصة، فأخذت من الدروز حلفاء لها فيشب القتال بين الطائفتين لمصلحة لندن وباريس، وأخذت سائر الدول الأوربية تعاون - أو تسغل - هذه الطائفة أو تلك لتأمين مصالحها الخاصة. والمؤلف يذكر بالمزيد من الإيجاز هذه المداخلات، وكنت أتمنى لو توسع فيها قليلاً، إذ نحن الآن نتخبط في أحداث تخرب بلادنا، وقد وضع فيها الأستاذ غسان تويني - وهو خبير في الموضوع - كتاباً قتيماً بعنوان «حرب الآخرين». وقد يكون المؤلف كفت عن الموضوع لأنه بحاجة إلى مرور المزيد من الزمن، وأميركا حاملة مشعل النفط، يضيء طريقها إلى ما فيه مجد إسرائيل، وكان قد انتقل إليها بعد أن حملته يد إنكلترا، كما يبين ذلك الفصل الأول من الكتاب بوعود متناقضة (ص: ٣٩) وترك للتاريخ أن يكشف عن خطة لورنس وخطة كيسنجر وغيرها على أمل أن يستنير بها اللبنانيون وغيرهم.

وهناك حادث تاريخي كنت أودّ لو أعطى المؤلف رأيه فيه، وهو «عامية

إنظباس».

## الموارنة

لنأت الآن إلى تحفظ ذي شأن يمكن أن نسميه «العقدة المارونية» عند المؤلف.

كثيرون من الموارنة، وإن رأوا إيجابيات دور الموارنة في إرساء الكيان اللبناني، يعترفون بأخطائهم في بعض المواقف والممارسات التي ساهمت في إضعاف هذا الكيان مع أخطاء سواهم. وكأني بالمؤلف آخذ على عاتقه أن يعملهم الأكثر بشكل يشبه «فئة الخلق» أو «الزكزكة» و«الدغدغة».

فأني حاجة مثلاً، ونحن في موضوع الكيان اللبناني، للتوسّع تكراراً في التأكيد الجازم أنّ الموارنة نشأوا على هرطقة المنوتيلية وعاشوا فيها قرونًا طويلة،

وأي علاقة لهذا الأمر بوجودهم في لبنان؟ فإذا كان لهذه القضية علاقة ذات أهمية في تاريخنا، كان من المستحسن أن يذكر بشيء من التفصيل المراجع المثبتة، كما ذكر أولئك الذين تبثوا المرقف المعاكس، أمثال المطران بطرس ديب في كتابه «تاريخ الكنيسة المارونية» (منشورات الحكمة، بيروت ١٩٦٢) أو الاباتي بطرس فهد في كتابه «حول كتاب الهدى وتاريخ الطائفة المارونية» (دير سيدة اللويزة ١٩٨٠).

إن حصّة المارونية والموارنة كبيرة وكبيرة جداً في الكتاب، ولكن طرحها لا يخلو من حين إلى آخر، لا من النقد فقط، بل في ما يشبه النهك أيضاً، خاصة الفصل الرابع بعنوان «السوسة بين الشوك».

وهناك قضية اللغة حيث يقول (ص: ١٢٤) «ومن المؤكد... إن لغتهم كانت العربية منذ القرن التاسع، مما يشير إلى أن أصولهم ينبغي أن تكون من مجتمع عربي قبي...» فما رايه بأقباط مصر؟ ومن ناحية أخرى نسأل ما كانت لغتهم قبل القرن التاسع، علماً بأن «كنيتهم أتت في العام ٦٨٠» (ص: ١٢١). قد يأتي على البال أنهم كانوا يتكلمون السريانية، غير أن المؤلف على رأي آخر، إذ يقول في الصفحة ذاتها:

«ليست هناك أهمية تذكر لكون السريانية بقيت لغة الطقوس الدينية في الكنيسة المارونية. فالسريانية، التي هي الصيغة الأدبية للأرامية، كانت أصلاً لغة الطقوس الدينية لجميع الطوائف المسيحية العربية والآرامية - العربية». وفي الصفحة ١١٨ نقرأ «لم تكن اللغة السريانية بالنسبة إلى الموارنة في أي وقت... أكثر من لغة طبقية محصورة في الاستعمال الكنسي». وقد كان للموارنة ينسخون الأناجيل والكتب الطقسية اللازمة لعبادتهم بالسريانية». فنقول:

١ - لو لم يستعمل الموارنة السريانية إلا في الطقوس، فمن أين أتت كل هذه الأسماء عندهم التي تتبع من الآرامية والسريانية، لا من العربية، مثل قديشا، شماس، شدياق، كفر عيدا... والأسماء المبتدئة بحرف ساكن مثل «بصرما، بسعل، بناع كفر، بلوزا، كفر صواب... وأكثرها في الشمال حيث اللهجة لا تزال ذات نبرة سريانية.

٢ - بخصوص اللغة الطقسية، علينا أن نتذكر أن روحانية الكنائس

الشرقية تدفعها منذ القديم إلى استعمال لغة الكلام الحية في الطقوس حتى يفهمها الشعب ويشارك فيها، علماً بأنه لم يكذب يكون في ذلك الوقت من «تعليم مسيحي» إلا من ممارسة الكتب الطقسية. وقد عرفنا من المسنين الأتقياء الأيمن من كانوا يتلون عن ظهر قلبهم مقاطع طويلة من الكتاب المقدس سمعوها في الرتب الطقسية.

... وهناك ملاحظة ثانوية بحد ذاتها ما كنا لنذكرها، لولا الخط الإجمالي الذي تبعه المؤلف بخصوص الموارنة. فيقول إن أول مطبعة أنشئت في لبنان كانت مطبعة دير مار يوحنا للروم الكاثوليك في الخنشارة. والأصح أنها كانت مطبعة دير مار قزحيا للموارنة التي طبعت كتاب المزامير بالكرشوني سنة ١٦١٠، في حين أن دير مار يوحنا طبع كتاب ميزان الزمان سنة ١٧٣٥. وفضله أنه كان السباق في سكب الأحرف العربية.

وهناك ملاحظة أخرى تستحق الذكر، عندما يتكلم المؤلف في الفصل الأخير عن نظرة العرب الجديدة في الموارنة وهي أن رؤساء الدول العربية المجتمعة في الدار البيضاء سنة ١٩٧٣ اختاروا ليتكلم باسمهم في جامعة الأمم عن قضية فلسطين رئيس لبنان الماروني، فاقترح حلاً «لبنانياً» لها، أي دولة تعايش بين اليهود والعرب، مسيحيين ومسلمين (بيت بمنازل كثيرة).

وهناك تأكيد نسفره بخصوص انتخاب بعض البطاركة حيث يقول المؤلف (ص: ١٥٢):

«استخدم المشايخ من آز الخازن وآل حيش نفوذهم لتأمين انتخاب أعضاء من هاتين الأسرتين بطاركة لفترة من الزمن... وبعد ذلك فقدت أسرتا المشايخ في المنظمة السيطرة التي كانت لها على تنظيم الكنيسة المارونية...»

الفنية تستحق بعض التدقيق. نجد في لائحة البطاركة أن أول بطريك خازني، يوسف ضرغام، انتخب سنة ١٧٣٣، وثالث وآخر بطريك خازني، يوسف، سنة ١٨٤٥، والبطريك الحبشي الوحيد، يوسف، انتخب سنة ١٨٢٣ - والبطريك من «العامة» سعد سنة ١٨٥٤. وبين البطريك طريتا الخازن ١٧٥٦ والبطريك يوسف حيش ١٨٢٣، انتخب خمسة بطاركة من

«العامة». فتكون نسبة المشايخ أربعة على أحد عشر. فهل كان هذا يستلزم استعمال نفوذ الأسرتين، مع العلم أنّ البطارقة الأربعة الممتين من ألمع بطارقة الموارنة في الكنيسة وفي المجتمع وفي الوطن، تكفي صفاتهم ليتخبهم الأساقفة بدون اللجوء إلى نفوذ عائليّ أو سياسيّ... فما هي الفائدة من هذا الغمز بالنسبة إلى موضوعنا؟

ختامًا هذا التحليل وتجاوؤًا مع الفصل الأخير من هذا الكتاب ومع ما يجعله من إيقاظ ضمير وأمل لمستقبل واع وأفضل، يعود إلى الفكر النداء المؤثّر الذي وجّهه قداسة البابا يوحنا بولس الثاني إلى جميع اللبنايين، مسيحيين ومسلمين، في رسالته لم بتاريخ أوّل أيار سنة ١٩٨٤ حيث يقول:

«إنّ سنوات الحرب الطويلة هذه يجب ألاّ تنال من ثقتكم بلبنان عينه، فهو قيمة حضاريّة ثمينة: فلننكر في ما الإنسانيّة جمعاء هي مدينة له به منذ عهد الفينيقيين البعيد، دون أن ننسى تلاقي الأديان، والحوار الثقافيّ بين شرق وغرب، والمبادرات المسكونيّة، والحريّة، والتفاهم والضيافة وانفتاح الروح. إنّ هذه كلّها كانت القيم التي نهض عليها لبنان الامس وهي في أساس لبنان الغد... ولا تستطيع جميع البلدان، صديقة السلام والحريّة إلاّ أن تقدّم للبنان دعمها تساعد على استعادة وجهه الأصيل، وهذا ما سيكون عمل اللبنايين وحدهم، وهو عمل يقتضي له صبر وسخاء.

... فكروا... أيها اللبنايون الأعزّاء بما تمكّتم من بنائه معًا، وهو مجتمع حوار وازدهار كان موضوع حسد الجميع.

ما من شكّ في أنّ عوامل داخلية وخارجية، لا يمكن التغلّب من أهمّيّتها، جاءت تشوّه لبنان. لكنّ الفضل المتالي وخيبات الأمل والاقبال وحتى المجازر لا تستطيع أبدًا أن تطفئ تمامًا هذه الشعلة الصغيرة التي ترنّجف في قلب كلّ إنسان والتي تُدعى المحبة والتي بها يشابه هذا الإنسان. أكثر ما يشابه، الله».

إنّ قداسته يعود بنا ببلاغته الثاقبة إلى بداية كلامنا حيث ذكرنا رسول المحبة يوحنا الحبيب. ولا شكّ أنّ قلبه الأبويّ الكبير ينبض بمحبة خاصّة للبنان

حملته إلى إطلاق صرخة جديدة تخنقها الغصّة في رسالته الصوريّة المرئية إلى  
أجبار الطوائف المسيحيّة المجتمعين في بركري بتاريخ ٢٥ أيار ١٩٩٠...  
فهتف قائلاً: «إنّ لبنان هو أكثر من بلد، هو رسالة (إنسانيّة)».

فهل عندنا آذان سامعة لنسمع وقلب نابض لنفهم ونعمل؟